شخصية الأزهر العلمية

للدكتور محمد البهى

لا أودّ هنا أن أحدد الشخصية القانونية للأزهر فذلك محله عند ما يتعرض لعلاقة الأزهر بغيره لتسهيل الفصل فى أموره الخاصة كمؤسسة عامة ، وإنما أقصد بيان العناصر التى تتكون منها شخصيته « كجامعة علمية » ، وفى الوقت نفسه هى عدته التى ينزل بها ميدان الحياة ليحافظ بها على وجوده الخاص بهذا الوصف

قد يكون عطف الوالى على رجاله ورعايته له من أسباب قوته فى وقت من الأوقات ، وقد تكون شخصية شيخه إذا علت مكانتها وكانت محببة لدى كثير من نفوس الخاصة من أسباب قوته أيضاً فى وقت من الأوقات كذلك ، وقد يكون لنفر من علمائه إذا منحه الشعب نوعاً خاصاً من الإجلال والاحترام أثر فى قوة الأزهر أيضاً

ولكن هذه الأسباب خارجة عن شخصيته كمعهد للبحث والدرس العلمى وإن كانت من مقومات شخصيته الدينية لأن عطف الوالى مثلاً على رجاله لما لهم من الصفة الدينية ، والاحترام الذى يمنحه الشعب لبعض علمائه لا شك أن القسط الأكبر منه راجع إلى معنى دينى فيه ، وسيبقى عطف الوالى عليه ما دام معهداً للدين ، وسيبقى احترام الشعب لبعض دائر بين علمائه ما داموا ينتسبون للدين ، إذ الوالى فى بسط سلطانه النفسى على الشعب فى حاجة إلى رجال الدين ، والشعب أيضاً ما دام يعتقد بمنح احترامه للشرف على شئون المقيدة ، واعتقاد الشعب باق ما دام هناك شعب ، فالأزهر من هذه الناحية لا يضمن وجوده الذاتى فحسب، ولكنه وجود عنيف فى قوته يتلاشى عند الاصطدام به أى شىء آخر

ولست أعنى أيضاً هذه الشخصية، إذ أن للأزهر وصفاً آخر وهو كما أنه معهد دينى هو معهد علمى ، فله بجانب الشخصية الدينية شخصية أخرى علمية ، وهذه الشخصية الأخيرة يكونها أفراد ولكن لا بوصف كونهم دينيين، بل بوصف كونهم علماء باحثين وإن تناول بحثهم فيما تناول الدين نفسه ، ويكونها كتاب ولكن لا بوصف أنه مصدر للأحكام الدينية ولكن بوصف أنه يتضمن إنتاجاً علمياً خاصاً ، وعلى عدد من العلماء الباحثين ، وعلى قيمة إنتاجهم العلمى تختلف الشخصية العلمية قوة وضعفاً ، فإذا وجدنا من بين الأزهريين فى عصر من عصور تاريخه عدداً يمتاز بالبحث ورأينا لبحثه قيمة علمية دل ذلك على أن الأزهر له بجانب قوة وجوده الدينى قوة أخرى لوجوده العلمى؛ وإن لم نجد بين رجاله من له ولعلمه هذه الميزة كان اعترافنا بوجوده فقط لقوته الروحية

وقد أطال أحمد حسنين فى وصف القمر والنجوم ، كما أطال فى وصف الشروق والغروب ، فكيف صنع فى هذه الأوصاف ؟

تقل إلينا أحاسيس أهل البادية بقوة وحيوية ، لأن الكواكب فى البوادى لها سحرٌ يجهله من يأنسون بأضواء المصابيح

ثم ماذا ؟ ثم أقول إن أحمد حسنين صوّر نفسه فى كتابه بصورة الرجل المتحنّن بهوى الصحراء ، ولو قال له الغادون : ما تشتهي ؟ لقال : أعود ! ! كما عبر الشريف الرضى عند فراق بغداد

وهنالك صورة أبدع وأروع ، هى صورة العالم الحصيف الذي أباحه العلم ما لا يباح من هتك أسرار الصحراء

هنالك أحمد حسنين الذى يتمارض ليخلو إلى أجهزته العلمية فى غفوة الليل

هنالك الباحث المستقصي الذى يدوّن كل ما يرى وما يسمع وما يذوق بلا تأجيل ولا تسويف . . .

هنالك الرجل الذى يرصد الشمس من وقت إلى وقت ليُمدّ العلم بزادٍ جديد

هنالك الوطنى الغيور الذى ينص على قيمة بعض الواحات من الوجهة الحربية

هنالك المفكر الذى يشرح ما فى الصحراء الغربية من مذاهب وآراء

أما بعد فتلك هى الملامح الفكرية والعقلية والذوقية للرحالة أحمد حسنين ، وهى « الدليل » الذى « يوجه » الطلبة إلى سرائر كتابه النفيس

وكل ما أرجوه أن تكون الفتوّة التى اتصف بها المؤلف من أعظم مطامح الشبان فى هذا العهد ، فقد رأوا بأعينهم كيف تكون الخشونة أقوى الدعائم فى بناء الرجال

زكى مبارك

الدينية ، وهي أبدية خالدة ، وأبديتها لا تتوقف على قيمة جوهرها في نظر العقل الإنساني لأنها وجدت فقط لانتسابها إلى شيء خارج عن نطاق الإنسان نفسه

وليس معيار البحث في كثرة الجمع أو الاختصار ، وليست قيمته العلمية في الحفظ والتحصيل ، بل في الاستقلال في التفكير في النقد الإيجابي . فكثرة عدد « العلماء » ووفرة مواد الدراسة وكثرة الكتب المتداولة في الدرس ليست عنواناً على وجود الشخصية العلمية ، بل لا بد من أن نلمس في « العلماء » بوصف عام الاستقلال في التفكير ، ونعثر في هذه المواد وتلك الكتب على شخصياتهم

وبهذه الشخصية العلمية فقط يمكن للأزهر أن ينافس غيره من الجامعات المدنية ، وعلى نوعها يتوقف « مجاله الحيوي المدني » في الضيق والاتساع ونفوذه على الخاصة في الضعف والقوة . والذي يتولى شؤون الأزهر ننعته بالمصلح العلمي ، لا من حيث أنه يغير في مواد الدراسة بالزيادة أو بالنقص ، أو يعدل في النظام العام مثلاً ، ولكن من حيث أن إشرافه كان ذا أثر في الإنتاج العلمي وفي تكوين الشخصيات الباحثة . لا ننعته بالمصلح العلمي لأن في عهده مثلاً يستطيع نفر من الأزهريين أن يخالف فهماً مألوفاً شائعاً في بعض الأحكام الفقهية الفرعية دون أن يتعرض الباقون منهم له بالأذى مجاملة له أو خشية منه ، وإنما يستحق وصف المصلح العلمي حقاً إذا كان مبعث عدم التعرض من الباقين الاقتناع الذاتي بحرية التفكير وبجواز الاستقلال في التفكير ، ولكنه لا يعدم في كلتا الحالتين أن يلقب « بشيخ الدين » أو بالزعيم الديني إذا قاد مع ذلك مدرسة دينية مخصوصة لها ميزة إيجابية في حياة الإنسان العلمية . فالإمام المرحوم الشيخ محمد عبده زعيماً دينياً أكثر منه مصلحاً علمياً ، وإن كانت له شخصية العالم الباحث ، لأن بحثه قام على النقد ، وإنتاجه يمثل استقلالاً في التفكير إلى حد ما ، على الأقل أكثر مما كان مألوفاً في عهده

وفي العشرين سنة الأخيرة من قرننا العشرين ، أي في المدة التي أخذ فيها الجامع الأزهر لقب جامعة علمية وأصبح الوصف العلمي جزءاً من شخصيته القانونية نجد نزاعاً متكرراً يأخذ ألواناً مختلفة بين جامعة فؤاد الأول المدنية والجامع الأزهر يدور من جانب رجال الجامعة على أن الجامعة دون سواها هي موطن البحث العلمي ، ومن جانب الأزهر على أن الأزهر يشارك الجامعة في هذا العمل . وبينما يطالب « الجامعيون » دعواهم باستقلالهم في التفكير في البحث ـ عن التقليد وما ورد من الثقافة الموروثة ـ إذ بكثير من الأزهريين يلجأ في تعليل المشاركة إلى نظام الكليات والتخصصات في الأزهر ، وهو نظام جامعي . وكما يؤخذ على الفريق الأول عدم الدقة في تحديد معنى الاستقلال في التفكير ، يؤخذ على الفريق الثاني التعليل بالشكليات . ويجب على الفريقين أن يجاوزا هذا ويحتكما إلى عمل الأستاذ نفسه

ولكن ليس من السهل علينا نحن الأزهريين أن نحتكم إلى الأستاذ . وبالأخص إلى عمل النخبة من أساتذتنا ، إلى عمل جماعة كبار العلماء ـ وهم أساتذة الأساتذة ـ لأن من العسير أن يطلع أجنبي عنهم على ما لهم من « رسائل » ومن هنا يصعب تقدير عملهم من الوجهة الفنية

والحكم على عملهم من عناوين رسائلهم حسب لا يخلو من نقص . فعناوين كثير من رسائلهم وإن احتملت أن مضمونها جمع لمتون أو اختصار لمطول أو معالجة مفككة لمسائل نافهة أي لا تشتمل على عمل علمي بالمعنى الصحيح ، إلا أنها في ذاتها قد تكون ـ مع احتمال آخر ـ أبحاثاً مؤسسة على استقلال في التفكير ونوع من النقد العلمي

فإلى أن تنشر رسائل جماعة كبار العلماء فينا ـ لأن عملهم وحده أمام التاريخ وأمام الحكم العدل هو الأساس الذي يبنى عليه الآن التقدير والاعتراف أو عدم الاعتراف بشخصية الأزهر العلمية ـ يجب علينا نحن الذين لم يصبحوا بعد من جماعة كبار العلماء إما أن نسعى في أن نطالع غيرنا على أبحاثنا الشخصية ، وبذا نكون علماء ، أو نعمد إلى تناول عمل الجامعيين بالنظر العلمي فنؤمن بما يدعونه أو ندلهم على موضع الدعاية فيه

ومتى تنشر هذه الرسائل ؟ ... علمه عند الجماعة نفسها !

محمد البهي
مدرس علم النفس والفلسفة
بكلية أصول الدين

حكم استئنافياً بتغريم زكي محمد ابراهيم البقال بباب الشعرية بالقضية ن ٨٨٨٥ بجلسة ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٤٠ خمسون قرشاً لبيعه ملحاً بأزيد من التسعيرة